

الامية في الغرب

ليس لدينا ما يركن اليه من الاحصاءات في نسبة عدد الاميين في بلاد الغرب الى المتعلمين من ابناءهم اذ ان احصاء اليوم قد لا ينطبق عليه احصاء غدٍ . والذي علم بالتحقيق ان الممالك الاوربية الصغرى كالدانيمرك والبلجيكا وهولاندا واسوج وزوج وسويسرا هي أكثر اهل أوروبا انغماساً في التعليم وأقل أهلها اميين حتى ان عدد هؤلاء بالنسبة الى المتعلمين يكاد لا يذكر ويكفي أنه لا يوجد في سويسرا غير شخص واحد في كل الفين من السكان ذكورهم وأناتهم

ولئن كان التعليم اجبارياً في بعض الممالك الكبرى باوروبا واميركا فلا يزال عدد الاميين يذكّر فيها وفرنسا هي في مقدمة الدول العظمى بقلة أميها وكثرة متعلميها ومنوريها . وجميع الدول شاعرة بوجوب التعليم تفنن كل يوم في بثه على أساليب لم يكن يحلم بها اليونان والرومان ولا العرب ولا غيرهم من الامم العظيمة التي كان لها شأن في بعض أزمان التاريخ . وقد ارتقت المدارك في الغرب حتى أصبح ما كان يدعو اليه خاصته في أوائل القرن الماضي قضية مسلمة عند الخاصة والعامة في أوائل هذا القرن وصار عليه الفتوى والعمل . كل ذلك بفضل اهل العلم منهم وعلى حسب سنة الترقى قال (١) : بنام ذهب بعض قادة الامم الى ان انتشار المعارف مضر وظنوا بأن قيمة الناس تملو بتقدار نقصهم في المعارف وانه كلما نقصت معارفهم

(١) هذه الصيغة مأخوذة من كلام لبتام المنشوع الانكليزي المتوفى سنة

١٨٣٢ في كتابه اصول الشرع الذي عرته حضرة العالم الفاضل أحمد فتحي بك زغلول من قضاة مصر

غابت عنهم معرفة الاشياء التي تبعثهم على الضرر أو علمهم بوسائل فعله . وهو غلط فان انتشار المعارف ما كان ولن يكون سبباً في ازدياد الجرائم ولا مسهلاً لارتكابها ولكنه نوع الطرق في اقترافها فاستعملت وسائل أقل ضرراً من التي كانت قبلها . لنفرض ان الاشرار يستفيدون من كل أمر وانه بقدر معارفهم يسهل عليهم الضرر فهل نتيجة ذلك بقاء الناس جميعاً في ظلمات الجهل ولو كان خيار الناس وشرارهم متقنين الى نوعين ممتازين كالأمم البيضاء والأمم السوداء نقصرنا المعارف على الأولى وأبقينا الثانية في الجهل لكن تعذر ذلك وملازمة الخير للشر في الشخص الواحد تدعونا الى القول بجعل الكل تحت نظام واحد فاما جهل مطبق للجميع وإما علم للجميع ولا وسط بينهما على ان الدواء في الضرر نفسه لان المعارف لا تساعد الاشرار على ضرورهم الا اذا اقتصروا بها لكن اذا عمت سهلت على غيرهم ان يعرفوا حبالهم فيسقط تأثيرها . ألا ترى ان الامم في ازاء الجهل ما كانت تدرف من السيات الا ما تسقي به أسنة رماحها ولكن الامم المتقدمة عرفت جميع انواع السيات وعرفت أيضاً كيف تقابلها بما يدفع ضررها . كل انسان يمكنه ان يفعل جريمة ما وذو المعارف وحده هو الذي يتمكن من وضع قانون لمنعها وكلما قصرت معارف المرء صار . يلا الى فصل منفعة عن منافع الغير وكلما ارتفعت مداركه وسعت معارفه علم الجامعة بين المنفعتين .

وإمد فان من نالوا غاياتهم حقيقة بجعل أهمهم في حضيض الجهل انما نالوها بنشر الاوهام واذاعة الاغلاط فيهم ولقد كانت أولئك الرؤساء أنفسهم طعمة في هذه السياسة الحرجة اذ صارت الامم التي استمرت في السقوط تحظر قوانينها عليها ان تصعد في مراتي التقدم فريسة الامم التي

ارتقت معارفها فارتفعت قيمتها عليها . لان الاولى شبت في الجهل وشابت
في الطفولية تحت قيادة قوم اطلوا زمان خمولها ظناً بأنه يسهل عليهم تملكها
لذلك سهلت تلك الامم فتح ابوابها للبطالين اذ لا فرق عندها بين حاكمها
والجديد فهي خاضعة وأولئك يحكمون

هذا ما قاله المشرع الانكليزي وقال روبرتسون: كان الافرنج
في القرون الوسطى أميين لا يقرأون ولا يكتبون فكان الاعيان لا يحسنون
توقيع الكتب الصادرة عنهم فيكتفون برسم الصليب عليها بدلاً من التوقيع
وقد شوهد كثير منها في الازمنة الاخيرة بعضها صادر عن الملوك وبعضها
عن الاعيان كما ذكر ذوكنج بل وجد في القرن الرابع عشر ان أعظم
أكابر عصرهم وقوادهم مثل دوغسقلين رئيس الجيوش الفرنسوية أمياً .
وكان معظم القديسين ارباب المناصب الدينية والديوية لا يحسنون كتابة
اسمائهم على المقررات في المجالس وكان أعظم امتحان يجري على من
يروم ان يتقلد وظيفة سؤاله عما اذا كان يحسن قراءة الانجيل والمكاتبات
ويفسر معناها كلمة كلمة .

واظالما كان الملك الفريد الاكبر يشكو من أنه لا يوجد في البلاد الواقعة
بين نهري هومبير والتاميس أحد من القديسين يفهم الدعوات القديسية
بلغتها الاصلية ويتمكن من ترجمة العبارات السهلة من اللاتينية . وسبب ذلك
ندرة الكتب وعدم انتشارها وذلك ان الرومانيين كانوا يكتبون كتبهم على
جلود مصقولة أو على رق قشر البردي ويقال له ايضاً ورق النيل لانه كان
يأتي اليهم من مصر ولما كان ورق البردي أرخص كان استعماله عندهم
أكثر من الجلود . وبعد أن فتح المسلمون بلاد مصر انتظمت الصلات

بين أهل مصر وأهل إيطاليا وغيرهم عن أمم أوروبا فاضطر الناس أن يكتبوا جميع الكتب على الجلود فاصبحت نادرة . وقد مضت القرون على أوروبا والكتابة والكتب نادرة عزيزة في كل أقطارها حتى ان لويز الحادي عشر لما استعار من جمعية الطب البشري بباريز مؤلفات الفخر الرازي أحد فلاسفة المسلمين اضطر أن يرهن مقداراً جسيماً من أعلانه

وقصارى القول فقد أصبح الاوربيون بعد ان كان علماء الشرع والتاريخ منهم ينادون بما ينادون به على نحو ما تقدم آنفاً يعلمون اليوم ابن الزارع والتاجر والعامل والعالم والموظف مالا غنية له عنه في هذه الحياة الدنيا من الكتابة والقراءة احساب ومبادئ، الجغرافية والتاريخ والشرعية البسيطة . وفي فرنسا مثلاً يتعلم الجميع الا انه ينقطع ناس تفرّدوا بالذكاء ومن كان أهلهم في سعة من العيش يستطيعون معها الانفاق على أولادهم بدرسون الدروس العالية كالطب والصيدلة والمحاماة والهندسة والعلم والأدب وخدمة الحكومة يد أن علماء الفرنسيين يشكون اليوم - وأي أمة لا تشكو من حالها حباً بالازدياد من الارتقاء - من المتعلمين على هذا النمط وانهم فائضون عن الحاجة وينادي علماءهم بأنهم لو القوا درس اليونانية واللاتينية القديمتين وكفوا بنبيهم مؤونة ترجمة سوفلس وفيرجيل وانهم لو استعاضوا عنها بان ذهبوا مثلاً الى المستعمرات وزرعوا قصب السكر وباروا الالمان والانكليز في الشؤون الاقتصادية لكان أنفع لهم واجدى على مجتمعهم

يقولون ان شيادة العالمية (بكلوريا) التي سماها أحد ظرفاء الفرنسيين «جلد حمار» قد أخرتهم عن اللحاق بالامم وقد غشي على بصائر بعض العقلاء منهم فصاروا لا يرون الفضل والعقل الا فيمن درس هذه الدراسة الا ان

اهل التقدم منهم يقولون ان من اسس معملا توفرت فيه الاعمال وجرت على اتمها وكثرت فيه الاختراعات والتفنن وتابراً اسس بيتاً تجارياً نجح فيه ليس في نظر المجتمع الانساني دون ذلك العالم الذي يحمل شهادته في السلم والادب بل هو فوقه . وما صح منذ ثلثين سنة للفرنسيس لا يصح لهم ان يتعاطوه اليوم والحياة الاجتماعية في تبدل مستمر والحضارة تصير من يوم الى يوم حضارة صناعية علمية . وقد قال جول سيمون احد فلاسفة القرنسيس ينبغي ان نكون ابناء احرياء بهذا العصر كما قال العرب خلقوا اولادكم بغير اخلاقكم فابهم خلقوا الزمان غير زمانكم

الفناء المصري

الفناء صوت النفس وهو في كل أمة صورة آدابها وأخلاقها وعاداتها فيناترى الوحشي في مفازة تمشي الرياح بها حيرى مولهة وهو يتغنى بذكر الشمس والماء والشراب والعربي تحت القبة الزرقاء يتغنى بذكر البدر والليل والخليل اذا أنت بالحضري وهو آمن في سربه مطمئن في عقر داره لا يخشى زئير الاسد ولا يتطلب الغيث وقد احتفت به النواني والغيد ، والجواري والعبيد ، وهو يرتع في خمائل البساتين ، يتجرع كؤوس الهناء ، ويتغنى بذكر الجمال ، والديه والدلال ، والرقيب والعدال ، والعتاب والوصال ، وترى الجندي يتغنى بذكر الحروب ، ويترنم باغاني الوغى ، ويطرب لوقع السيوف على السيوف ، كما يطرب الحضري لوقع الصنوج على الصنوج ، أو لدق الأنامل على الأوتار والدفوف

والفناء قديم وجد مع النفس لان الانسان ما لبث لما أخذ بصره